البحوث والدراسات

ركاب الحج (المصرية) إلى بلاد الحرمين الشريفين في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

د. نايف عيد السهيل*

ملخص:

كانت مصر – بحكم موقعها الجغرافي – مركزاً لتجمع الحجاج القادمين من بلاد المغرب والأندلس وغرب إفريقيا. وقد استطاعت مصر النهوض بمرفق الحج ورعاية رحلاته إلى الحرمين الشريفين بتجهيز كل مستلزمات الرحلة، وبدعم رسمي وشعبي، وكانت لرحلات الحج مظاهر خاصة واحتفالات مميزة تقام في القاهرة.

وقد ترتب على رحلات الحج هذه العديد من الآثار، منها الآثار الدينية، والآثار العلمية والثقافية، والآثار الاجتماعية. ومن الآثار الدينية شيوع روح الزهد والتصوف وتطور الإفتاء والقضاء والخطابة وغيرها،... ومن الآثار العلمية والثقافية نشر العلم والثقافة على أيدي العلماء والفقهاء من الحجاج القادمين من مصر، وكذلك بناء المدارس. كما تعددت الآثار الاجتماعية وكان لها دور مهم في المجتمع الملكي والمدني.

حظيت كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة بمكانة روحية سامية لدى جماهير العالم الإسلامي، وقد جذبت هذه المكانة عدداً كبيراً من المسلمين الذين توافدوا على الحرمين الشريفين من مختلف الأمصار الإسلامية لأداء فريضة الحج، ولم يلبث أن فضل بعض هؤلاء جوار بيت الله العظيم على أرض مكة الطاهرة، أو جوار الحرم النبوي الشريف على أرض المدينة المنورة. والحج فريضة دينية يقوم بها المسلم في وقت معين وبأسلوب معين وبأداء مناسك

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية، عام ١٩٩٢م، وأستاذ مشارك بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكويت، دولة الكويت.

معينة، بل إنه – بجانب ذلك – يتسع لأن يكون عملاً حضارياً إسلامياً مهماً يسهم في تدعيم بناء المجتمع الإسلامي وتوثيقه وتقريب ما بعد منه. وقد كان اختيار الباحث لموضوع ركاب الحج المصرية إلى الحرمين الشريفين في عصر سلاطين دولة المماليك (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) من أجل إبراز أثر هذا المنسك الديني في الازدهار الحضاري للحرمين الشريفين من الناحية الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية.

وقد نهضت مصر في عصر سلاطين المماليك بأمر الحج وأولته رعايتها، سواء بالنسبة إلى المواكب التي كانت تخرج منها أو التي تمر عبر أراضيها؛ باعتبارها محطة رئيسية لمواكب الحج القادمة من بلاد المغرب والأندلس وبلاد غرب إفريقيا، والأخيرة كانت تعرف باسم بلاد السودان الغربي. لذلك حين نعرض لآثار ركاب الحج سوف نعرض لآثار الحجاج المصريين وغيرهم من الحجاج الذين قدموا إلى مصر من تلك البلاد التي أشرنا إليها، وخرجوا بصحبة ركب الحج المصري؛ إذ كان ركب الحجيج القادم من المغرب الأقصى في عهد الدولة المرينية (٦٦٨–٨٦٩هـ/ ١٢٧٠–١٤٦٥م) التي عاصرت دولة سلاطين المماليك يصل إلى القاهرة ويخرج مع ركب الحج المصري[١].

وقد ساعد موقع مصر الجغرافي المهم على أن تصبح بمنزلة البوابة الرئيسية للحجيج القادمين من شمال القارة الإفريقية وغربها إلى أرض الحرمين الشريفين، يضاف إلى ذلك أن مصر في تلك الفترة من تاريخها تسلمت مقاليد الزعامة السياسية في العالم الإسلامي، بعد أن تصدت للصليبيين والمغول، ونجحت في القضاء على هذين الخطرين اللذين سعيا إلى القضاء على العالم الإسلامي وعلى تراثه الحضاري، كما أنها استطاعت إحياء الخلافة العباسية – التي سقطت في بغداد على يد المغول (٦٥٦هـ) – في القاهرة في

(١) محمد المنوني، (١٩٥٣م)، من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان المغرب، ص ١٩.

عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وبذلك حملت مصر لواء الزعامة السياسية، والحضارية والروحية في العالم الإسلامي بأسره، وأصبحت بلاد الحجاز ضمن نفوذها السياسي في تلك الفترة.

وكانت ركاب الحج تبدأ بعد الإعلان عنها، وكان هذا الإعلان يحدث قبل بدء ركب الحج بنحو أربعة أشهر، وقد صار ذلك أمراً متبعاً كل عام. وكان الإعلان للاستعداد لهذه الرحلة يبدأ في المساجد في شهر شعبان حيث يقوم خطباء المساجد بالتنبيه على المصلين الذين لديهم رغبة في الحج للاستعداد، وينبهونهم أن موسم الحج قد أظلهم، وأن قافلة الحجيج السلطانية ستتحرك يوم كذا من مكان كذا. فإذا كان شهر رمضان كرر خطباء المساجد هذا النداء، فإذا انتصف شهر ذي القعدة خرج الحجاج من المصريين وغيرهم من أهل المغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي في قوافل متتابعة، ويجتمعون في مكان معين خارج القاهرة(٢).

أما إذا كان الركب من أجل العمرة في شهر رجب فكان النداء في المساجد يتم في نحو منتصف ربيع الآخر أو منتصف جمادى الآخرة، حتى يستعد المعتمرون للخروج إلى مكة وأداء العمرة في شهر رجب(٣).

وكان يلي مرحلة الإعلان عن رحلة الحج الاستعداد لها على مختلف المستويات وبخاصة على المستوى الرسمي؛ أي على مستوى السلاطين. وكانت الاستعدادات كبيرة لقافلة الحج السلطاني التي تقوم بتجهيز مستلزمات الرحلة من "الماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير، بالإضافة إلى الأطباء

(٢) ناصر خسرو، (١٤٠٢هـ)، سفر نامة، ترجمة أحمد خالد البدلي، الرياض، الطبعة الأولى، ص١١٧، المقريزي، (١٩٧٠م)، السلوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ٣، قسم ٢، ص٧٤٧، المقريزي، (١٩٥٥م)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ص١١، ويذكر المقريزي في كتابه الأخير أن المناداة كانت تتم في شهر رجب وليس في شهر شعبان.

(٣) المقريزي، الملوك، جـ٣، قسم٢، ص ٤٤٧، ٩٢٣، جـ٤، قسم ٢، ص ٦١٣.

والكحالين والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضي والشهود والأمناء ومغسل الموتى، كل هؤلاء كانوا في أكمل زي وأتم أبهة[٤]. وقد أورد لنا بعض المؤرخين المعاصرين من الأخبار ما يدل على مقدار الاستعداد الكبير، وعلى مقدار النفقة الهائلة التي كانت ترصد لركب الحج[٥]. كما كانت هناك استعدادات لركب الحج من قبل الأفراد العاديين.

ويعد المحمل (كسوة الكعبة) من مظاهر الاستعداد لركب الحج، وكان المحمل يجوب شوارع القاهرة إعلاناً للناس بذلك، كما أن كسوة الكعبة لها دلالة سياسية؛ فهي تدل على سلطة الدولة الكاسية على الحرمين الشريفين، وهي في هذا كالدعاء على المنابر لولي الأمر. وكان يحتفل بالمحمل على عصر سلاطين المماليك مرتين: المرة الأولى نحو منتصف شهر رجب، والمرة الثانية في منتصف شهر شوال. ويعد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ – ٦٧٦هـ/ ١٢٥٩ – ١٢٧٧م) أول من احتفل بالمحمل وسيره في شوارع القاهرة[٦]. (علماً بأن شجرة الدر قد سبقته في إرسال كسوة الكعبة المشرفة دون احتفال بالمحمل).

وكان الهدف من الاحتفال بالمحمل هو إعلام الناس بأن الطريق من مصر إلى الحجاز آمنة، وأن من شاء أن يحج فليأخذ استعداده ويجهز نفسه ولا يخش الطريق التي كانت مقطوعة قبل عصر الظاهر بيبرس بنحو قرنين من الزمان

---

(٤) السيوطي، (١٩٦٧م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الطبعة الأولى، جـ٢، ص٣١٠.

(٥) انظر وصف الاستعدادات والتجهيزات التي تمت عند حج السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون عام ٧١٩هـ عند كل من المقريزي، (١٩٧١م)، السلوك، جـ٢، قسم١، الطبعة الأولى، ص ص ١٩٥، ١٩٦. المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ١٠٠ – ١٠٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٩، ص٥٨، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر: بيروت، دون تاريخ، جـ٤، ص٨٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة، دون تاريخ، جـ٤، ص٥٧، المقريزي، الذهب المسبوك، ص١١.

بسبب الحروب الصليبية التي هددت طريق الحج الخارج من مصر إلى عقبة آيلة، ثم إلى بلاد الحجاز، ومنعت الحجاج من سلوك هذه الطريق(٧).

وكان أمراء الركب المغربي – كغيره من ركاب الحج القادمة إلى القاهرة – يشاركون في الاحتفال بالمحمل المصري في شوارع القاهرة، ويقوم بعضهم بحمل جانب من المحمل. ومن المغاربة من كان لا يكتفي بالمشاركة في هذا الاحتفال بل يذهب أيضاً في رفقة المحمل في طريقه من مصر إلى مكة المكرمة(٨).

وجرت العادة قبل أن يجوب المحمل شوارع القاهرة بثلاثة أيام أن يطلب من أصحاب الحوانيت التي تقع في طريق سيره تزيين حوانيتهم. وفي يومي الإثنين والخميس يوضع المحمل على ظهر جمل، ويبدأ السير من باب النصر، ويتقدم المحمل الوزير والقضاة الأربعة وقاضي العسكر والمحتسب وناظر الكسوة وهم راكبون خيولهم، بخلاف حاملي الرماح من المماليك السلطانية وهم لابسون دروعهم وراكبون خيولهم. ويسير الموكب على هذا النحو مع ضرب الطبول والصنج النحاسية من باب النصر إلى القلعة حتى الفسطاط، ثم يعود إلى القلعة مرة ثانية، ثم إلى جامع الحاكم داخل باب النصر. وكان السلطان يخلع على كثير من الجند المشاركين في حمل المحمل. ويترك المحمل حتى شهر شوال حيث كان يخرج للسفر إلى بلاد الحجاز في ركب يسمى ركب المحمل، يرأسه أمير يعينه السلطان(٩).

وكانت االكسوة اللازمة للكعبة المكرمة يرسلها الخلفاء العباسيون من بغداد في عصر بني أيوب. أما في عصر سلاطين المماليك فقد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد غزو المغول لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ولم يعد

(٧) السخاوي، (١٩٨٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، بولاق، ص٩٥.
(٨) محمد المنوني، المرجع السابق، ص ٢١.
(٩) القلقشندي، المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٧، ٥٨، المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص١٩٨.

لهؤلاء الخلفاء إلا مجرد الاسم، وكانت السلطة كاملة بأيدي سلاطين المماليك، ومن ثم صار أمر الكسوة موكولاً إليهم، يجهزونها ويرسلونها إلى مكة كل عام[١٠]. وكان أول من كساها من سلاطين المماليك بعد الاحتفال بالمحمل هو الظاهر بيبرس، وذلك في عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م[١١].

وكانت الكسوة تصنع في دور الطراز بالمدن المصرية، وخاصة تنيس وشطا ودمياط[١٢]، وأيضاً في مدينة الإسكندرية في عصر الناصر محمد بن قلاوون[١٣]، أما في عام ٨٢١هـ/١٤١٨م، فكانت تصنع في مدينة القاهرة بمشهد الإمام الحسين، رضي الله عنه[١٤]، في حين كانت الكسوة التي تكسو ظاهر البيت الحرام تصنع من الحرير الأسود، والتي تكسو داخله تصنع من حرير أحمر، أما كسوة الحجرة النبوية الشريفة التي تضم قبر المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فقد يزاد في حواشيها آيات من القرآن الكريم[١٥].

وكان سلاطين مصر يدبرون الأموال اللازمة للإنفاق على صنع الكسوة، حتى جاء الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون فأوقف في عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م على الكسوات الثلاث قريتين في أطراف القليوبية مما يلي القاهرة، يقال لهما بيسوس وسندبيس، اشتراهما ووقف غلتهما على كسوة

(١٠) القلقشندي، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٧.
(١١) الفاسي، (١٩٨٧م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ١، ص٥٩، المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ط ،٢، جـ١، ص٢٠٢.
(١٢) المقريزي، الذهب المسبوك، ص٤٣، هامش١.
(١٣) المقريزي، السلوك، جـ ٢، قسم١، ص١٩٥، ابن تغري بردي، النجوم، جـ٩، ص٥٨.
(١٤) صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٧.
(١٥) قطب الدين الحنفي، (١٣٠٣هـ)، الأعلام بإعلام بيت الله الحرام، طبع مصر، ص٣٢.

الكعبة التي كانت ترسل كل عام، وكسوة الحجرة النبوية والمنبر الشريف كل خمس سنين أو ست(١٦).

وكان يقوم على أمر الكسوة ناظر خاص يسمى ناظر الكسوة، وهو نفسه وكيل بيت المال بحسب شرط الواقف. وكان هذا الناظر يتولى أمر الإنفاق والصرف على صنعها وإرسالها إلى بلاد الحجاز من ريع الأوقاف التي سبقت الإشارة إليها(١٧).

عقب الإعلان والاستعداد لرحلة الحج والمظاهر المرافقة لها يخرج الحجيج في قافلة كبيرة إلى مكة، ويبدأ الركب من مكان خارج القاهرة يعرف ببركة الحاج، التي كانت تقع شمال القاهرة بنحو عشرة أميال(١٨)، ومنها يرحلون تباعاً إلى مدينة القلزم (السويس حالياً)، وعندها يتفرع الطريق إلى فرعين أو طريقين، طريق بري وطريق بحري، أما الطريق البري فإنه يسير من القلزم حتى مكة ويستغرق السير فيه خمسة عشر يوماً، وهو طريق صحراوي طوله نحو ثلاثمائة فرسخ، ويسلك الحجاج هذا الطريق في نظام وترتيب معين، فلا ينزلون منزلاً ولا يرحلون إلى مكان إلا بعد أن تدق الطبول ويعلو صوت النفير ليؤذن للناس بالرحيل أو النزول، ويسير الدليل أمام القافلة ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى المشاعلية الذين يسيرون أمام الركب وخلفه يحملون المشاعل لهداية الضال وحث من تأخر، ومعهم جمال يحملون عليها المنقطعين غير القادرين على السير(١٩).

---

(١٦) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٥٩، جـ٣، ص٣٠٧، المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم٣، ص٨٩٨، ابن تغري البردي، (١٩٨٥م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، جـ٢، ص٤٢٧.

(١٧) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص٩٦، ٢٢٠، جـ٤، قسم٣، ص١١٥٥.

(١٨) عن بركة الحاج، انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٤٨٩، جـ٢، ص١٦٣، السلوك، جـ٢، قسم١، ص٢٦١، جـ٢، قسم٣، ص٨٢٢، العيني، عقد الجمان (عصر سلاطين المماليك) جـ١، ص٤٢٥، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ١، ص٨٠.

(١٩) السيوطي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣١٠، المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم١، ص ٢٥٠، ٢٥٧، جـ٢، قسم٢، ص٤٩٤.

ونظراً لكثرة الحجاج القادمين من مصر والمغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي، فإن أكثر هؤلاء الناس كانوا يحملون رايات يتعارفون بها، فإذا ضل أحدهم استطاع العودة إلى أقرانه وأهل بلده في سهولة ويسر، وقد بلغ عدد الركبان أواخر القرن السابع الهجري ثمانين ألف ركب دون الدواب الأخرى من الخيل والبغال(٢٠)، وبلغ عدد الركبان الخارجة من بركة الحاج ستة في سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، على كل ركب أمير، وكل ركب يتكون من آلاف مؤلفة من الحجاج(٢١).

وواجه الحجاج عبر الطريق البري مصاعب أمنية؛ إذ كان هناك احتكاك بينهم وبين بعض أعراب البادية، وقد أشار العبدري الذي حج عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م إلى المعاملة السيئة واستغلال الحجاج من بعض الأعراب وحمل عليهم حملة شديدة، وأشار إلى انقضاضهم على من يتخلف عن الركب "لغفلة أو نوم أو انقطاع نتيجة العجز" (٢٢). وقد تعددت حوادث اعتداءات بعض العربان في برية الحجاز وسيناء على الحجاج القادمين من مصر؛ إذ هاجموهم في عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م في طريق المدينة المنورة، وقتلوا منهم طائفة(٢٣)، كما نهبوهم في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م عند الأزلم(٢٤).

واشتد أذاهم للحجيج في القرن التاسع للهجرة حتى نودي في عام ٨٣٥هـ بألا يسافر أحد إلى جدة أو مكة خوفاً من بعض العرب(٢٥). ويشير المؤرخون إلى اعتداءات بعض عرب عنزة على الحجاج في عام ٨٣٨هـ/

(٢٠) العبدري، (١٩٦٨م)، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ص١٥٣، ١٥٥، ١٥٦.
(٢١) المقريزي: السلوك، جـ٢، قسم٢، ص٢٥٠.
(٢٢) العبدري، الرحلة المغربية، ص ص ٢٠١، ١٥٤.
(٢٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص٢٥٧.
(٢٤) المصدر نفسه، جـ٣، قسم١، ص ص ٣٤٨، ٣٤٩.
(٢٥) المصدر نفسه، جـ٤، قسم٢، ص ٨٦٥.

١٤٣٤م وإلى عدوان بعض العرب عند عسقلان في العام التالي، وإلى عدوان بعض عرب بلي على الحجاج عند عودتهم ونهب أموالهم وذلك في عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م(٢٦).

وتتعدد حوادث اعتداءات بعض البدو من الأعراب على قوافل الحجاج حتى اضطر سلاطين مصر إلى التدخل لعلاج هذه المشكلة بطرق شتى، منها الإغارة على العرب المعتدين، وقتالهم وتأديبهم والقضاء عليهم، ومنها استخدام سياسة الملاينة والملاطفة في معاملتهم والإغداق عليهم بالأموال والعطايا والهدايا، ومنها زيادة تسليح قوافل الحجاج بإرسال جنود مدججين بالسلاح للدفاع عن هذه القوافل إذا تعرضت لأي عدوان.

وهناك حملات تأديبية لحماية الحجاج وتأمين طرق الحج من بعض العرب؛ فكان سلاطين المماليك في مصر يرسلون حملات عسكرية للتصدي لهم، وقد أرسلت سلطات مصر الأمير سودون المحمدي على رأس حملة من جند المماليك وعرب الكرك وينبع عقب عدوان قبيلة بلي على الحجاج عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، ووقع القتال بين الفريقين وانهزمت بلي، وقدم بعض شيوخهم إلى القاهرة يطلبون عفو السلطان والتزامهم بحفظ أمن الحجاج، فعفا عنهم وخلع عليهم(٢٧). كذلك فإنه بعد عدوان بني عقبة في شوال عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م على المساعدات التي ترسل إلى الحجاج في طريقهم عند عودتهم؛ حيث تكون قد نفدت أموالهم وأطعمتهم، أرسل سلطان مصر حملة عسكرية لقتال بني عقبة وردهم إلى الطاعة(٢٨).

وللقضاء على هذه الظاهرة كان سلاطين مصر يضاعفون الحراسة على

(٢٦) المصدر السابق، جـ٤، قسم٢، ص ٩٥٠، ٩٧٢، جـ٤، قسم٣، ص ص ١٠٧٠ – ١٠٧١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١١٣.

(٢٧) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٣، ص ١١٠٥، ١١٠٩.

(٢٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ص ٣٠٠، ٣٠١.

قوافل الحجاج، ويعملون على خروج محمل الحجاج صحبة أمير سلاح، كما حدث في عام ٧٥١هـ[٢٩].

وكان سلاطين مصر كثيراً ما يلجؤون إلى أسلوب التهدئة والتقريب والإنعام وإغداق الأموال على هؤلاء العربان كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند حجة عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م؛ مما أدى إلى استتباب الأمن في طريق الحجاج على الرغم من طول المسافة وبعد الشقة[٣٠].

ولذلك علا شأن هذا السلطان عند عرب شبه الجزيرة العربية عامة، وصار أمره معظماً عندهم واحترموه غاية الاحترام، لدرجة أنهم كانوا لا يحرسون القوافل القادمة من مصر فقط بل القادمة من غيرها أيضاً إذا ما قيل لهم إن الناس ما سلكوا هذا الطريق أو ذاك إلا بأمر الملك الناصر محمد صاحب مصر[٣١].

ولم يكتف سلاطين مصر في العصر المملوكي بتأمين طريق الحجاج من خطر بعض العرب بل قاموا بتمهيد الأماكن الوعرة من الطريق؛ فقد مهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حجته الثانية عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، وفي حجته الثالثة عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م ما كان في عقبة آيلة من الصخور ووسع طريقها؛ حتى أمكن سلوكها بغير مشقة وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة[٣٢].

أما الطريق البحري فيبدؤه الحجاج من القلزم (السويس) أو مدينة الطور التي تقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء بين خليجي السويس والعقبة، وتسير السفن بالحجاج عبر البحر الأحمر حتى تصل إلى ميناء الجار أو ينبع أو جدة[٣٣] بعد عشرين يوماً من الإبحار بحسب قول ناصر خسرو، أو

(٢٩) المقريزي، السلوك: جـ٢، قسم٢، ص ٨٢٢.
(٣٠) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم١، ص ٢٠١، الذهب المسبوك، ص ص ١٠٤-١٠٥.
(٣١) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم١، ص ص ٢١٤ - ٢١٥.
(٣٢) المصدر نفسه، جـ٢، قسم١، ص ١٩٨، جـ٢، قسم٢، ص٣٥٣.
(٣٣) أبو الفدا، (١٨٤٠هـ)، تقويم البلدان، طبع باريس، ص ص ١٠٧، ١١٢، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ص٢٣٩، ٣٠٧، ٣٨٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص ١٧.

خمسة وعشرين يوماً إلى ستين يوماً بحسب قول المقدسي، وبحسب قدرة الرياح على دفع السفن في هذا البحر المليء بالشعاب المرجانية البارزة وغير البارزة، ولذلك كان الإبحار فيه لا يكون إلا نهاراً فقط، كما أنه كان على ربابنة السفن تجنب الدوامات المائية التي تنتج عن تلاقي الرياح وتصادمها في الجزء الشمالي من هذا البحر(٣٤)، فإذا كان الربان ماهراً، وتجنب الشعاب المتناثرة في قاع البحر، وانتبه لهبوب الرياح وعرف اتجاهها بدقة، استطاع أن يمخر عباب هذا البحر في أمان ويصل إلى ميناء الجار، وهو أقرب الموانئ للقادم من ميناء السويس، ومنها يتجه الحجيج إلى المدينة المنورة للزيارة أولاً، أو يتابعون السير براً إلى ميناء ينبع، ومنه إلى مكة، فيحجون أولاً ثم يرحلون إلى المدينة المنورة للزيارة قبل عودتهم إلى بلادهم(٣٥).

وقد سعى سلاطين مصر إلى تذليل الكثير من الصعاب التي كانت تواجه الحجاج، منها الصعوبات الخاصة بقلة الماء مع الحر الشديد واندثار بعض الآبار، وغير ذلك من الأسباب. وكان ينتج من هذه المشكلة نفوق الدواب وموت كثير من الحجاج كما حدث في أعوام كثيرة، منها عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م حيث "انتشر الموت بين الحجاج من شدة الحـــر والعطـش(٣٦)، ومات منهـم في عام ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م عدد يراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف للسبب نفسه وهم في طريقهم إلى بلاد الحجاز(٣٧)، كما ماتت أعداد كبيرة من الحجاج لقلة المياه في عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م(٣٨).

---

(٣٤) ابن خرداذبة، (١٨٨٩م)، المسالك والممالك، بغداد سنة ١٨٨٩، ص ١٥٣، المقدسي، (١٩٨٦م)، أحسن التقاسيم، ليدن، ص ١١، ١٢، ٢١٥، الاصطخري، (١٩٦٧م)، مسالك الممالك، ليدن، ص٣٠، الإدريسي، (١٩٨٩م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، جـ١، ص ص١٠، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩.

(٣٥) الإدريسي، المصدر السابق، جـ١، ص ١٤٤، ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ٩٢، ٩٣.

(٣٦) المقريزي، مصدر سابق، جـ٣، قسم١، ص ١٤٥، جـ٣، قسم٢، ص٨٨٨.

(٣٧) المصدر نفسه، جـ٤، قسم٢، ص ص ٨٣٦، ٨٥٤.

(٣٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١١٢، ١١٣.

وقد عالج سلاطين المماليك هذه المشكلة؛ إذ قاموا بحفر الآبار وعيون الماء وصيانة الموجود منها، وبناء السقايات المعروفة باسم السبيل، وكان ذلك مما يعرف باسم إصلاح المناهل، وكثيراً ما ترددت هذه العبارة التي تقول: إنه "سار فلان من الأمراء في عدة من المماليك وغيرهم لإصلاح مناهل طريق الحجاج"[٣٩]، أو "توجه فلان لعمارة المناهل بطريق الحجاز"[٤٠]. وقد أشارت كتب التاريخ إلى أسماء أمراء ومهندسين قاموا بهذا العمل، منها ما أشار إليه ابن تغري بردي من أنه في عام ٨٠٢هـ /١٣٩٩م توفي المعلم شهاب الدين أحمد بن محمد الطولوني المهندس بطريق مكة، وكان قد توجه لعمارة المنهال بطريق الحجاز[٤١]. كما يخبرنا المقريزي أنه في عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م مات الأمير أحمد بن علي بن أينال في عدة من المماليك وغيرهم في أثناء إصلاح مناهل طريق الحج[٤٢].

وقد تعددت الآبار التي حفرها سلاطين مصر في طريق الحجاج وفي مكة والمدينة، فقد قام القاضي زين الدين عبد الباسط – بأمر سلطان مصر في عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م – بحفر بئر في منزلة عيون القصب[٤٣]، كما قام الأمير شاهين الطويل في عام ٨٣٤هـ بحفر بئرين عند منزلة الوجه في موضع يقال له (زعم وقبقات)[٤٤]، كما أجرى السلطان الناصر محمد الماء لخليص قرب مكة[٤٥]. أما

(٣٩) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٣، ص ١١٠٢.
(٤٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٧.
(٤١) المصدر نفسه، جـ١٢، ص ١٧.
(٤٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٣، ص ١١٠١.
(٤٣) المصدر نفسه، جـ٤، قسم٢، ص٨٥٣، ٨٦٠.
(٤٤) المصدر نفسه، جـ٢، قسم١، ص ٢٠٠، ٢٠١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٦٠.
(٤٥) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم١، ص ٣٠٣، الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٢٦٠، ابن الوردي، (١٩٧٠م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البداوي، بيروت، ط ١، جـ٢، ص٤٠٥.

الآبار والعيون والبرك والسبل التي أقامها السلاطين والأمراء والأثرياء في مكة وفي المناسك المحيطة بها أو القريبة منها فكثيرة، منها عين ثقبة التي أجراها ابن هلال الدين في عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م بأمر الناصر محمد(٤٦)، وعمارة عين بأذان التي قام بها الأمير سودون بأمر المنصور شعبان في عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م(٤٧)، كما عمر في مكة سبيل للملك المؤيد عام ٨١٨هـ/١٤١٥م(٤٨)، وفي عهد الأشرف برسباي تم تجديد عين عرفات(٤٩)، وغير ذلك من الآبار والأسبلة والعيون، والمتوضآت(٥٠).

كما تعرض الحجاج لنقص الطعام وغلاء الأسعار؛ مما كان يلحق بالفقراء منهم أشد الأذى، وقد تواترت الأخبار التي تشير إلى غلاء الأسعار في موسم الحج منها ارتفاع سعر القمح في عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م(٥١)، وكذلك في عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م(٥٢)، وعام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م(٥٣)، وهكذا في سنين كثيرة من القرنين الثامن والتاسع للهجرة. ولعلاج هذا الأمر كان سلاطين مصر وأمراؤها يرسلون المساعدات العاجلة للحجاج من مؤن ومواد غذائية على وجه السرعة، وما أرسلته مصر في عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م من قمح إلى مكة بلغ مقداره اثني عشر ألف أردب(٥٤). وأرسل الظاهر برقوق في عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م أربعين

---

(٤٦) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص ٢٦١ – ٢٦٢.
(٤٧) المصدر نفسه، جـ١، ص٩٢.
(٤٨) قطب الدين الحنفي، الأعلام، ص١٠٤، المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٢، ص١٠٣.
(٤٩) عن الأسبلة والمتوضآت التي بناها وعمرها سلاطين مصر، انظر الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، جـ٣، ص٣٣٠، ابن بطوطة، جـ١، ص١٥٥، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٣٥٥.
(٥٠) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم١، ص٣٠٣.
(٥١) المصدر نفسه، جـ٢، قسم٣، ص٦٦٠.
(٥٢) الفاسي، العقد، جـ١، ص٢٠٩، المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص٩٧.
(٥٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص ٩٧، الفاسي، العقد، جـ١، ص٢٠٩.
(٥٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ص ١٠٩ – ١١٠.

أردباً كل يوم للقضاء على غلاء الأسعار، وفي عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م أرسلت مصر السفن محملة بالطعام والمواد الغذائية إلى ينبع ومنها إلى جدة؛ مما أدى إلى انخفاض الأسعار(٥٥).

هكذا تعددت الخدمات التي قام بها سلاطين مصر وأمراؤها في العهد المملوكي بالنسبة إلى ركاب الحج والحجاج على نحو ما عرضنا؛ إذ ذللوا لهم كثيراً من الصعاب، وقضوا على معظم العوائق والمشكلات، ووفروا لهم الأمن والأمان في معظم الأحيان في طريقهم.

وامتد اهتمام سلاطين مصر ليشمل أيضاً عمارة الحرمين الشريفين وتجديد تلك العمارة، خاصة إذا حدث ما يؤثر عليها من سيول وأمطار غزيرة وحرائق وغير ذلك. وكان هؤلاء السلاطين يخصصون الأموال اللازمة لهذه العمارة، ويقومون بوقف الأوقاف عليها. وقام الظاهر بيبرس بتسليم أوقاف الحرم بمصر والشام لشريف مكة(٥٦)، أما الظاهر برقوق فقد قام بتجهيز الأموال اللازمة لعمارة ما تهدم من الحرم المكي(٥٧)، وكذلك إعادة بناء ما تهدم منه عندما احترق عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م(٥٨)، وتعددت أعمال العمارة للحرم المكي في عهد الأشرف برسباي في عام ٨٢٦هـ/١٤٢٣م(٥٩)، وكذلك في عهد الظاهر جقمق في عام ٨٣٥هـ/١٤٤٩م(٦٠)، ومن تلاه من سلاطين المماليك.

كما كان الاهتمام بعمارة الحرم النبوي كبيراً أيضاً وخاصة عندما احترق في عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م نتيجة لإهمال الخدام؛ فأرسل الظاهر بيبرس في بداية سلطنته؛ أي في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م – الأخشاب والحديد والرصاص وآلات

(٥٥) السخاوي، التبر المسبوك، ص ص ١٨، ١٩.
(٥٦) المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ٨٧–٨٨.
(٥٧) قطب الدين الحنفي، الأعلام، ص ٨٧.
(٥٨) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص ص٥٠٢–٥٠٣.
(٥٩) قطب الدين الحنفي، الأعلام، ص ص٩٦، ٩٨.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ص١٠٠-١٠١، السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ٣٦٦.

البناء والصناع والمؤن اللازمة لهم إلى المدينة المنورة، فقاموا بإعادة بناء ما تهدم من الحرم النبوي[٦١]، واستمرت جهود تعميره، منها بناء القبة الموجودة على الحجرة الشريفة في عهد قلاوون[٦٢]، وبناء منارة رابعة ورواقين في عهد ابنه الناصر محمد[٦٣]، وتم تجديد هذا المسجد حين احترق جزء كبير منه مرة أخرى في عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م نتيجة لصاعقة أصابته، فقام السلطان قايتباي بإعادة بناء ما تهدم منه في أقصى سرعة ممكنة[٦٤]، واستمرت أعمال التعمير في عهد من خلفه من سلاطين المماليك.

وإذا كان هؤلاء السلاطين يقومون برعاية الحجاج وبرعاية أهل بلاد الحجاز في المناسك المقدسة والحرمين الشريفين، فإن هذا الاهتمام كان يتزايد إذا ما قام هؤلاء السلاطين بالحج إلى بيت الله الحرام. وقد تعدد السلاطين والحكام الذين أدوا هذه الفريضة من مصر أو من بلاد غرب إفريقيا ووسطها بالإضافة إلى المغرب. وركاب حج هؤلاء السلاطين تصور أبلغ تصوير مدى الرغبة في إرضاء المولى – عز وجل – واحترام الأماكن المقدسة، والاهتمام الشديد بأمر مرفق الحج وتمهيد الطرق له وحل مشكلات الحجاج ورعايتهم الرعاية الكاملة.

وقد حج في عصر سلاطين المماليك من مصر الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله في عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م[٦٥]، وحج أيضاً الخليفة العباسي المعتضد بالله أبو بكر في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م[٦٦]، كما خرج الخليفة المتوكل على الله

(٦١) ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص١٩٣، العيني: عقد الجمان، جـ١، ص٣٦٥، السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٣٨٥.
(٦٢) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٣، ص ٤١٨.
(٦٣) المصدر نفسه، جـ٣، ص٧١٦.
(٦٤) قطب الدين الحنفي، ١٠٥ – ١٠٦، السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٢، ص ص ١٩٧ – ١٩٨، جـ٣، ص ص ٤١٠، ٤١١، ٦٩٦.
(٦٥) المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ٥٩ – ٦١.
(٦٦) المصدر نفسه، ص ٦٢، حاشية ٢.

مع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد للحج عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م، وإن كانت ركاب الحج لم تكتمل بسبب عودة السلطان والخليفة من العقبة إلى مصر دون حج نتيجة فتنة وقعت في القاهرة، وانتهت بالقبض على السلطان بعد عودته وقتله(٦٧).

أما سلاطين المماليك فقد كان أول من خرج بأمر الحج الظاهر بيبرس، وذلك عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م؛ ففي شوال من ذلك العام خرج ومعه عدد من الأمراء ونحو ثلاثمائة مملوك وأجناد كثيرة بعد أن كان قد جهز المؤن والمواد الغذائية، وعين العربان المتوجهين معه والمرتبين في المنازل التي سينزل بها. ووصل إلى المدينة المنورة ورحل منها إلى مكة ودخلها في الخامس من ذي الحجة، وأغدق على الناس وأدى مناسك الحج دون حراسة، فأخذ يطوف ويسعى وحده دون أن يعرفه أحد، وغسل الكعبة بيده بماء الورد. وأخذ يتردد على أهل الخير والصلاح من سكان مكة يلتمس بركتهم ويسأل دعاءهم. وقبل أن يغادرها استقبل أميري مكة، وخلع عليهما وعلى زعماء الحجاز كلهم. وترك معهما الأمير شمس الدين مروان نائب أمير جندار لتقوى به أنفسهما بحسب طلبهما، ولكي يرجعا إليه في أمرهما، ويكون الحل والعقد على يديه. ثم عاد إلى دمشق ثم القاهرة، فوصلها في صفر من عام ٦٦٨هـ وعليه عباءته التي حج بها لم يغيرها نحو خمسة وسبعين يوماً(٦٨).

كما حج الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات؛ الأولى كانت عام ٧١٢هـ/١٣١٢م(٦٩)، والثانية في عام ٧١٩هـ/١٣١٩م، والثالثة في عام

(٦٧) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم١، ص٢٧٥.

(٦٨) النوبري، (١٩٩٠م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٣٠، مصر، ص ص ١٦٦ – ١٦٧، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ٨٩ – ٩٥، السلوك، جـ١ قسم٢، ص ص٥٨٠ – ٥٨٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ص ١٤٦ – ١٤٧، أبو الفدا، المختصر، جـ٤، ص٥.

(٦٩) ابن حبيب، (١٩٧٦م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، جـ٢، القاهرة، ص٤٥، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ٩٩ – ١٠٠، أبو الفدا، المختصر، جـ٤، ص ٧٠.

٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، وكان معه في حجتيه الثانية والثالثة صاحب حماة المعروف بأبي الفدا الذي أعطانا وصفاً دقيقاً لهاتين الرحلتين هو وغيره من المؤرخين المعاصرين الذين أفاضوا في وصف الاستعدادات الهائلة التي أعدها هذا السلطان لحجه .

وعندما وصل إلى مكة أظهر التواضع، وطاف حول الكعبة كما يطوف الناس، طاف دون أن يكون معه أحد من الحراس، وصار يزاحم الناس وهم يزاحمونه حتى قضى مناسكه. وأمر بأن تكسى الكعبة بالحرير الذي أحضره معه، وغسل الكعبة بيده، ووزع العطايا على أمراء مكة وأرباب وظائفها وأمراء الحجاز وعربانه، ثم توجه إلى المدينة المنورة فزار وغمر أهلها بعطاياه وهداياه كما فعل في مكة المكرمة. وعاد إلى مصر في المحرم من عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، واستقبل استقبالاً حافلاً؛ وزينت القاهرة عند وصوله ودقت الطبول فكان يوم دخوله القاهرة يوماً مشهوداً(٧٠)، وتكررت هذه المراسم والأفعال من هذا السلطان في أثناء حجته الثالثة التي كانت في عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م(٧١).

أما سلاطين المماليك الجراكسة فقد حاول المؤيد شيخ المحمودي أن يحج في عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م، وجهز المؤن والأمتعة وما يلزم للحج، ولكن تعرض بلاد الشام لخطر الأعداء جعله يذهب إلى هذه البلاد للدفاع عنها بدلاً من الحج(٧٢). ولم يحج من هؤلاء السلاطين إلا الأشرف قايتباي المحمودي في عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، وهو سلطان له مآثر عديدة في عمارة الأماكن المقدسة في

(٧٠) عن حجة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، انظر: ابن حبيب، جـ٢، ص٩٩، أبو الفدا، المختصر، جـ٢، ص ص ٨٥ – ٨٧، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ١٠٠ – ١٠٥، السلوك، جـ٢، قسم١، ص ص ١٩٥ - ١٩٧، ٢٠١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ص ٥٨، ٦٠ - ٦٢.

(٧١) عن حجة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة، انظر: ابن حبيب، جـ٢، ص٢٢١، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ١٠٦ – ١٠٩، السلوك، جـ٢، قسم٢، ص ص ٣٥٠ – ٣٥٧، أبو الفدا، المختصر، جـ٤، ص ١٠٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ص ١٠٢، ١٠٧، ٣١، بطوطة، جـ١، ص٢٢١.

(٧٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم١، ص٤٤٥، ٤٥٨.

بلاد الحجاز. وقد رحل إلى المدينة المنورة أولاً لأداء واجب الزيارة، فوصلها في الثاني والعشرين من ذي القعـــدة، وأظهر كثيراً من الخشـــوع والتواضع حتـــى إنه ترجل عن فرسه عند باب سورها ومشى على قدميه حتى وصل قبر المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وامتنع عن دخول الحجرة النبوية تأدباً مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخرج إلى مكة بعد أن أجزل العطاء لأهل المدينة وعلمائها، ودخل مكة في موكب فخم؛ حيث كان أهلها قد خرجوا لاستقباله، فأدى مناسك الحج وتصدق وأهدى وعاد إلى القاهرة(٧٣).

وقد ترتب على ركاب الحج التي كانت تخرج من مصر إلى الحرمين الشريفين في عصر سلاطين المماليك العديد من الآثار، منها الآثار الدينية والآثار العلمية والثقافية، وأخيراً الآثار الاجتماعية والاقتصادية.

أولاً – الآثار الدينية لرحلات الحج:

كانت الغاية من السفر إلى بلاد الحرمين الشريفين أداء فريضة الحج ثم المجاورة من أجل الانقطاع للعبادة، والاحتماء بحرم الله ابتغاء لفضله ورضوانه. فجاور عدد كبير من الصلحاء الذين ألزموا أنفسهم الزهد في الدنيا وشدة العبادة، كما ألزموا أنفسهم ضروباً من المجاهدات التي قصدوا بها تصفية النفس وتقوية الروح. ومن هؤلاء المجاورين كثيـر كانوا من أهل العبادة والصلاح(٧٤) منهم المجاور عبد العزيز بن محمود بن عبد الرحمن المالكي المتوفى سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، الذي صحب جماعة من الصالحين، وكان زاهداً على طريقة حسنة(٧٥).

(٧٣) عن تفاصيل حجة الأشرف قايتباي، انظر: قطب الدين الحنفي، الأعلام، ص ص ١٠٦ – ١٠٩، السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٣، ص٤١١.

(٧٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ ١، ص ٤٠٥، ٤٠٦، جـ ٤، ص٣١٧، جـ ٥، ص ٢٠٦، جـ ٧، ص ص ٦٩، ١٣٢.

(٧٥) الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الطبقة ٦٣، ص ٢٦٣، الفاسي، العقد الثمين، جـ ٥، ص ص ٤٦٠، ٤٦١.

أما الزهاد الذين جاوروا الحرم النبوي فمنهم إبراهيم بن الشيخ الدهماني الفقيه الصالح القيرواني المتوفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م. والمجاور الحسن المسوفي التكروري الذي كان متعبداً محباً في الصالحين والعلماء وجاور في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م حتى مات بالمدينة المنورة(٧٦)، وكثيرون غيرهم.

وقد أسندت بعض الوظائف الدينية إلى حجاج جاوروا بمكة؛ فقد تولى وظيفة الفتوى الشيخ أبو بكر بن أبي العباس القسطلاني المصري في عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، وظل متولياً وظيفة الإفتاء فيما بعد ذلك كثيراً. كما تولى أيضاً وظيفة القضاء، حيث عين في قضاء مكة في عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م. أما المجاور عبد الرحمن بن أبي عبدالله محمد العسقلاني المتوفى عام ٧٩٤هـ/١٣٩١م فقد تولى عقد الأنكحة بمكة، كما تولى محمد بن عبد المؤمن الدكالي المغربي المتوفى سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٩م وظيفة الحسبة بمكة(٧٧).

ومن الوظائف الدينية التي تولاها بعض الحجاج الذين جاوروا في الحرم الشريف أيضاً وظيفة المؤذن، فكان عبد الرحمن بن أبي طاهر مؤذناً بمئذنة دار الندوة في الفترة الزمنية للدراسة، وتلقى هذه الوظيفة عن أبيه عن جده(٧٨).

وفي الحرم النبوي الشريف تولى الحاج إبراهيم بن أحمد بن عيسى القاهري المتوفى عام ٧٧٨هـ/١٣٧٨م قضاء المدينة المنورة، كما تولى وظيفة الإفتاء والإمامة والخطابة(٧٩). أما وظيفة المؤذن في هذا الحرم فقد تولاها الحاج إبراهيم بن محمد بن المرتضى، وكان حسن الأداء حسن الصوت. وتولاها من بعده ابنه محمد الذي أصبح رئيساً للمؤذنين بالمدينة المنورة في القرن السابع

(٧٦) السخاوي، المصدر السابق، جـ ١، ص ص ٩٢، ٢٨٩.

(٧٧) الفاسي، العقد الثمين، جـ ١، ص ص٣٢٢، ٣٢٣، ٣٩٨، ٣٩٩، جـ ٢، ص ص ١٢٩، ١٣٠، جـ ٥، ص ٤٠٦.

(٧٨) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٤٠٧.

(٧٩) السخاوي، المصدر السابق، جـ ١، ص ص ٦١، ٦٢، ٢٧٨.

الهجري. كما كان الحسن بن عمرو بن أبي القاسم الأقصري المصري مؤذناً في الحرم الشريف في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري[٨٠].

كما كان للمجاورين دور في رؤية أهلّة الشهور العربية لتحديد بدايات تلك الشهور، والشهادة بذلك عند الأمير والقاضي وإمام المسجد الحرام، فقد هلّ شهر رجب بشهادة خلق كثير من المجاورين في زمن الرحالة ابن جبير[٨١]، والراجح أن الحجاج في الفترة الزمنية للدراسة شاركوا في رؤية الأهلة.

ثانياً – الآثار العلمية والثقافية لرحلات الحج:

أسهمت رحلات الحج والمجاورة في نشر العلم والثقافة الإسلامية في بلاد الحرمين الشريفين سواء بين الحجاج أم بين أهالي تلك البلاد، ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الحجاج كانوا من العلماء والفقهاء والدارسين. وينشر هؤلاء الحجيج من العلماء علمهم بين الحجاج سواء في الطريق أم في الحرمين الشريفين، ويعقدون حلقات العلم والبحث والمناظرة. وكان بعضهم يفضل البقاء والمجاورة للحرمين الشريفين، وقد أورد تقي الدين الفاسي أعداداً كبيرة من هؤلاء المجاورين الذين يقومون بعملية التعليم والتدريس في مساجد ومدارس مكة المكرمة والمدينة المنورة.

كما أن كثيراً من الحجاج القادمين من بلاد المغرب والأندلس وغرب إفريقيا كانوا يستريحون في أثناء سيرهم إلى الحرمين الشريفين في مدن كانت مراكز علمية مشهورة مثل فاس والقيروان وتونس والقاهرة، وكانوا يطلبون العلم على أيدي علمائها في أثناء فترة بقائهم فيها، التي قد تمتد إلى شهور وخاصة في القاهرة. والمثال على ذلك هو الرحالة العبدري الذي قدم إلى مصر مع قافلة الحج، التي أقلعت من المغرب الأقصى في عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، ولما وصل

(٨٠) المصدر السابق: جـ ١، ص ص ٨٨، ٢٨٥.

(٨١) ابن جبير، (١٩٨١م)، الرحلة، القاهرة، ص ص ٩٥، ٩٦.

إلى مدينة تونس أخذ العلم عن علمائها وأجازوه هو وابنه إجازة عامة[٨٢]، وفي القاهرة التقي علماءها، منهم العلامة دقيق العيد وأخذ عنه، وتعلم على يديه كثيراً من معارف عصره[٨٣]. ويخبرنا الفاسي عن حجاج مغاربة آخرين أفادوا من العلماء الذين مروا ببلادهم، مثل أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الصنهاجي الفاسي المعروف بأبي الحداد الذي تفقه في تونس ومصر في أثناء رحلته للحج؛ حيث حج ومات بمكة عام ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م[٨٤]. كما يفيدنا أحمد بابا التنبكتي بأن الفقيه المتصوف محمد بن عمر التونسي المتوفى عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م رحل إلى الحجاز وتعلم في مصر والإسكندرية والمدينة المنورة[٨٥]، والأمثلة على تعلم الحجاج القادمين من بلاد المغرب والأندلس كثيرة في كتب الطبقات والتراجم ولا سبيل لحصرها.

وكانت الحركة العلمية في بلاد الحرمين الشريفين تزدهر بمجاورة بعض الحجاج في تلك البلاد، والأمثلة كثيرة على الذين علموا سواء من المصريين أم المغاربة أم الأندلسيين. ومن المصريين الذين علموا وأفادوا غيرهم من الحجاج في مكة المكرمة، سيف الدين أرغون الذي تردد على هذه المدينة للحج عدة مرات بين عامي ٧١٦هـ و ٧٢٦هـ، وأذن له بالتدريس والفتوى فيها[٨٦]. أما الزبير بن علي بن سيد الكل الأزدي الأسواني فقد حدث بمكة في عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، وأخذ عنه جماعة من سكانها[٨٧]. والمقريزي نفسه قام بالتدريس في مكة المكرمة، إذ يقول إنه في شهر رمضان من عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م ابتدأ في إسماع كتاب "إمتاع

(٨٢) العبدري، المصدر السابق ص ص ٤٢ – ٤٣، وعن العلماء الذين أخذ العبدري في تونس، انظر: رحلته، ص ص ٤٢ – ٤٤، ٦٧، ١٠٠ – ١٠٣، ٢٤٠ – ٢٤٤.

(٨٣) العبدري، المصدر نفسه، ص ص ١٣٨ – ١٤٥.

(٨٤) الفاسي، المصدر السابق، جـ٢، ص ص ٩٧ – ٩٨.

(٨٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (١٩٨٩م)، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى، ص٤٠١.

(٨٦) الفاسي، المصدر السابق، جـ٣، ص ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٨٧) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٢، ص٧٨.

الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع"، في المسجد الحرام تجاه الميزاب، وقد سمع هذا الكتاب جمع غفير من طلاب العلم(٨٨).

ويعد إبراهيم بن محمد اللخمي الأسيوطي المصري من الذين درسوا وعلموا وأسمعوا كتب العلم الناس في الحرمين الشريفين بعد أن أدى فريضة الحج وجاور مكة عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، ودرس وأفتى وأفاد علماءها ورجالها. وجاور أيضاً بالمدينة مراراً ودرس وأفتى فيها، ثم عاد إلى مكة حيث توفي بها عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م(٨٩). ومنهم أيضاً أحمد بن إسماعيل القاهري الأزهري الشافعي الذي تعلم في مصر، ثم حج عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وجاور في المدينة المنورة، وبقي فيها مدة انتفع فيها أهلها به، ثم جاور بمكة وسمعه السخاوي هناك، ثم عاد إلى المدينة، وحضر مجلس علمه السمهوري مؤرخ المدينة، وظل يفيد الناس بعلمه هناك حتى توفي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م(٩٠).

وتتعدد الآثار العلمية لركب الحج من مصر إلى الحرمين الشريفين في الفترة الزمنية للدراسة، فلم يقتصر دور الحجيج على تعليم العلم بل قام بعضهم ببناء دور العلم خاصة المدارس التي بنيت في مكة والمدينة؛ خدمة لطلب العلم والحجاج والمجاورين وأهل هذه البلاد أنفسهم. وكان الموسرون من الحجاج مثل السلاطين والأمراء والتجار يقومون ببناء هذه المدارس، ويوقفون عليها الأوقاف، مما أثرى الحياة العلمية في بلاد الحجاز إلى حد كبير وجعلها مقصداً أو مركزاً من مراكز العلم، فكان الحاج يرحل للعلم والحج في الوقت نفسه. والأمثلة على بناء المدارس كثيرة، منها ما قام به الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة في مصر المتوفى عام ٧٣٠هـ، والذي حج عدة مرات، وقام ببناء مدرسة للحنفية بدار العجلة في مكة ووقف عليها وقفاً(٩١).

(٨٨) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٣، ص٨٥٨.
(٨٩) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص ١٤١ – ١٤٢.
(٩٠) الفاسي، المصدر السابق، جـ٣، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣.
(٩١) قطب الدين الحنفي، الأعلام، ص٩٨.

كذلك قام ناظر الجيش الزين عبد الباسط في عصر الأشرف برسباي (٨٤١-٨٤٥هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧م) ببناء مدرسة نسبت إليه، فسميت بالباسطية تقع عند باب العجلة أيضاً. وفي عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م أمر السلطان قايتباي ببناء مدرسة عند الحرم المكي لتدرس المذاهب الأربعة، وأمر أيضاً ببناء رباط يسكنه الفقراء والمتصوفة، ودور ومساكن يوقف ريعها على المدرسين والقراء(٩٢).

ومن الآثار الثقافية أيضاً قيام العلماء والفقهاء والأدباء الذين حجوا من مصر - من أهلها أو من غيرهم من المسافرين عبرها - بإهداء المصحف الشريف للحرمين الشريفين؛ فقد أهدى سلاطين الدولة المرينية مصاحف بهية. منها ما قام به السلطان يوسف المريني (٦٨٥-٧٠٦هـ/١٢٨٦-١٣٠٧م) الذي أهدى مصحفاً كتبه بخط يده غاية في الضبط والإتقان على الحرم المكي، وكان الذي أنابه في إهداء هذا المصحف ووقفه هو الحاج الإمام أبو عبدالله محمد بن إبراهيم البقوري المتوفى بمراكش في عام ٧٠٧هـ(٩٣). كما أن السلطان أبا الحسن المريني (٧٣١-٧٥٢هـ/١٣٣١-١٣٥١م) أهدى البيت الحرام بمكة مصحفاً بالغ في الاعتناء به أيضاً، وأرسل هذا المصحف مع حجاج المغرب، واشترى الضياع في المشرق وأوقفها على القراء فيه، كما أهدى هذا السلطان الحرم النبوي مصحفاً(٩٤).

وقام بعض الحجيج بتأليف الكتب ونظم الأشعار والقصائد في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي وضع كتب في تاريخ مكة والمدينة، وفي السيرة النبوية وفي غير ذلك من أنواع العلوم والفنون في أثناء حجهم أو في أثناء مجاورتهم للحرمين الشريفين، وكان هذا العمل مهماً ومفيداً في إثراء الحياة العلمية والثقافية الإسلامية سواء في بلاد الحجاز أم في غيرها من البلاد.

---

(٩٢) المصدر نفسه، ص١٠٤.

(٩٣) محمد المنوني، مرجع سابق، ص ٢٥، ٢٦.

(٩٤) المرجع نفسه، ص ٢٦.

ومن الحجاج المصريين الذين قاموا بهذا العمل العظيم أبو العباس أحمد بن لؤلؤ القاهري، الذي رأى السخاوي تصانيفه بالمدينة المنورة، ومنها شرح اللمحة البدرية في علم العربية لشيخه ابن حيان(٩٥). وقاضي القضاة المصري أحمد بن علي السبكي الذي حج وألف كتباً كثيرة وشعراً في مديح النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما زاره، وتوفي هناك عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م(٩٦). والمقريزي نفسه حج أكثر من مرة وجاور وألف كتباً كثيرة، منها كتاب الإشارة والإعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام، والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأخوال والحفدة والمتاع، وغير ذلك من الكتب التي تؤرخ للرسول وأهل بيته، ولتاريخ مكة وللحجاج من الملوك والسلاطين.

ومن تقاليد ركب الحجيج المغربي قيام بعض حكام المغرب بإرسال رسائل في المديح النبوي، يحملها أحد علماء هذا الركب، يهدونها لروح الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكدون فيها ولاءهم وإخلاصهم للجناب النبوي، ويتضرعون إلى الله لحل أزماتهم، وممن فعل هذا السلطان المريني أبو عنان (٧٤٩–٧٥٩هـ/١٣٤٨–١٣٥٨م) وقد حمل رسالته القاضي الأديب محمد بن يحيى الغساني المتوفى عام ٧٨٦هـ(٩٧).

بعد أن عرضنا للآثار الدينية والعلمية والثقافية لرحلات الحج التي انطلقت من مصر أو مرت بها في عصر المماليك، نعرض للآثار الاجتماعية لهذه الرحلات.

ثالثاً – الآثار الاجتماعية لرحلات الحج :

كان الحجاج والمجاورون يشكلون جزءاً من البناء الاجتماعي لمجتمع الحرمين الشريفين؛ فقد استقروا واندمجوا مع السكان الأصليين. وإذا كانت

(٩٥) السخاوي، التحفة، جـ١، ص٢١٤.
(٩٦) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ١، ص ص ٤٠٨، ٤١٠ – ٤١١.
(٩٧) محمد المنوني، المرجع السابق، ص ص ٢٧، ٢٨.

الأهمية الدينية للحرمين قد أدت إلى زيادة أعداد المجاورين، فإن كثرة الأربطة التي أقيمت في مكة المكرمة والمدينة المنورة قد أسهمت هي بدورها في تسهيل إقامتهم. وقد بلغ عددها – كما ذكر الفاسي – أربعة وخمسين رباطاً. وكانت كتب الوقف الخاصة بتلك الأربطة تسمح بإقامة الفقراء والمساكين، والزهاد ذوي التقى والعبادة والصلاح من العرب والعجم المجاورين(٩٨). وفي المدينة المنورة كان هناك رباط المراغي الذي أنشئ بجوار الحرم النبوي الشريف.

ولم يكن الحجاج الذين جاوروا بمعزل عن حياة المجتمع المكي أو المدني، يتضح ذلك حين أجدبت المدينة المنورة، فاتفق المجاورون على أن يصلوا صلاة الاستسقاء، فقام المجاور أبو العباس القسطلاني المصري بإطعام الفقراء والمساكين، ثم استسقى مع المجاورين فسقوا، وفي مكة المكرمة كان هذا المجاور يعول في اليوم ثمانين فقيراً(٩٩).

كما كان عبدالوهاب بن التاج الواسطي السكندري الذي حج وجاور بالمدينة المنورة من أهل الصدقة والإيثار والشفقة على الفقراء(١٠٠).

كما تمتع الحجاج الذين جاوروا بكرم أهل مكة، فقد كانت لهم الأفعال الجميلة، والأخلاق الحسنة، والإيثار للفقراء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء والمجاورين واستدعاهم بلطف ورفق وحسن خلق ثم أطعمهم(١٠١). كما كانوا يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين في الليالي المباركة(١٠٢).

لقد تعددت وتنوعت الآثار الاجتماعية لركب الحج، منها المصاهرات الكثيرة التي تمت بين بعض الحجاج – وخاصة المجاورين منهم – وبين غيرهم من

(٩٨) الفاسي، (١٩٨٥م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت، ص ص ٥٢٧، ٥٣٧.
(٩٩) الفاسي: العقد الثمين، جـ ٢، ص ص ٦٦، ٦٧.
(١٠٠) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ ٢، ص٢٢٥.
(١٠١) ابن بطوطة، الرحلة، جـ ١، ص ١١٩.
(١٠٢) المصدر نفسه والجزء نفسه، ص٩٨.

الناس، سواء كانوا من أمثالهم من الحجاج والمجاورين أم من أهل بلاد الحجاز، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومما أشار إليه الفاسي زواج محمد بن علي بن يحيى الأندلسي الغرناطي نزيل الحرمين الشريفين منذ عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م حتى وفاته في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م من ابنة النفيس اليهنسي في مكة، ورزق منها ببنتين، إحداهما تزوجها جد الفاسي المكي مؤرخ مكة الشهير، وصاحب كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. أما البنت الأخرى فقد تزوجها القاضي شهاب الدين الطبري من أهل مكة(١٠٣).

كذلك فإن إبراهيم بن محمد بن عبدالرحيم المصري الذي حج واستوطن بمكة عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م قد سكن مكة وتزوج من أهلها(١٠٤).

وقد وردت إشارات كثيرة تقول إن فلاناً حج وجاور بمكة أو بالمدينة، وتأهل بها وولد له مثل ابن النجم الصوفي المصري، الذي تزوج من أهل المدينة في عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م(١٠٥)، وكمال الدين محمد بن موسي المعروف بالدميري المصري (٧٤٢-٨٠٨هـ/ ١٣٤١-١٤٠٥م) الذي حج وجاور بمكة وتزوج من فاطمة ابنة يحيى بن عباد الصنهاجي المكية(١٠٦). وأحمد بن سعيد الجريري القيرواني الذي حج عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وسكن المدينة وتزوج ابنة قاضيها فتح الدين بن صالح(١٠٧). وقد أدت هذه المصاهرات وغيرها إلى تدعيم أواصر الصلة بين أهل الحرمين الشريفين وبين الحجاج القادمين من مصر والمغرب والأندلس إلى حد كبير.

وقد امتد هذا الدور الاجتماعي للحجاج إلى مساعدة إخوانهم المجاورين، وكانوا غالباً من الفقراء المنقطعين للعبادة والعلم، والمثال على ذلك هو العلامة

(١٠٣) الفاسي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢١٨.
(١٠٤) السخاوي، التحفة، جـ١، ص١٤٢.
(١٠٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص٥٠٢.
(١٠٦) الفاسي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧٣.
(١٠٧) السخاوي، المصدر السابق، جـ١، ص ص ١٧٩-١٨٠.

أحمد بن لؤلؤ بن عبدالله القاهري الشافعي، الذي كان كثير الحج والزيارة والمجاورة بمكة والمدينة، وكثير الإحسان إلى المجاورين والسعي في مصالح المسلمين وحوائجهم(١٠٨).

كما أن خليل بن عبدالرحمن المالقي الأندلسي الذي سكن مكة مجاوراً بها، كان قد تكفل بحوائج الأغنياء والفقراء في أمور الدين والدنيا، فكان معلوم البر للجميع، مشهور الصدقة، يواسي الفقراء(١٠٩).

كل ذلك يبين لنا الأثر الحضاري الكبير الذي ترتب على ركاب الحج التي قامت من مصر أو مرت بها وكانت قادمة من بلاد المغرب والأندلس وغرب إفريقيا إلى بلاد الحجاز، وقد رأينا هذا الأثر واضحاً في مجال الحياة الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية؛ مما يدل على أن هذه الرحلات كانت من أهم العوامل في نشر الثقافة والحضارة الإسلامية.

الخاتمة:

لقد أثبتت الدراسة ما يلي:

- كانت مصر بحكم موقعها الجغرافي مركزاً لتجمع الحجاج القادمين من بلاد المغرب والأندلس وبلاد غرب إفريقيا.
- استطاعت مصر في الفترة الزمنية للدراسة النهوض بأمر الحج ورعاية ركب الحجاج.
- يبدأ ركب الحج بالإعلان في المساجد؛ للاستعداد له، وكان الإعلان يتم في شهر شعبان ويتكرر النداء في شهر رمضان.
- يلي مرحلة الإعلان الاستعداد لهذا الركب على مختلف المستويات – خاصة المستوى الرسمي – بتجهيز كل مستلزمات الركب.

---

(١٠٨) المصدر نفسه، جـ١، ص٢١٣.

(١٠٩) أحمد بابا، المرجع السابق، ص ص ١٦٧–١٦٨.

- يعد المحمل "كسوة الكعبة" من مظاهر الاستعداد لركب الحج، وأول من احتفل بالمحمل في مصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس.
- شارك أمراء الركب المغربي وغيره من ركاب الحج القادمة إلى القاهرة في الاحتفال بالمحمل المصري في شوارع القاهرة.
- كان الحجيج المصريون يخرجون في قافلة كبيرة إلى مكة، بالإضافة إلى ركاب الحج القادمة من بلاد المغرب والأندلس وغرب إفريقيا، وكان هناك رايات لكل ركب يتعارفون بها.
- أبرزت الدراسة المصاعب التي كان يواجهها الحجاج عبر الطريق البري، التي تمثلت في اعتداءات بعض الأعراب عليهم وصعوبة الطريق ووعورته وقلة الماء وارتفاع الأسعار.
- وبينت الدراسة الجهود التي بذلها سلاطين المماليك للقضاء على هذه الصعاب وتسهيل حج بيت الله الحرام لجميع ركاب الحج المتجهة من مصر إلى الحرمين الشريفين.
- لم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك على القضاء على العوائق والمشكلات التي واجهت الحجيج، بل امتد اهتمامهم ليشمل عمارة الحرمين الشريفين وتجديد تلك العمارة؛ خاصة إذا حدث ما يؤثر عليها من سيول وحرائق وغير ذلك.
- تعدد السلاطين والحكام الذين أدوا فريضة الحج من مصر وغيرها.
- ترتب على ركاب الحج التي كانت تخرج من مصر إلى الحرمين الشريفين في عصر سلاطين المماليك العديد من الآثار، منها الآثار الدينية، والآثار العلمية والثقافية، والآثار الاجتماعية والاقتصادية.
- بالنسبة إلى الآثار الدينية فقد أدت ركاب الحج وما صاحبها من مجاورة إلى شيوع روح الزهد والتصوف في بلاد الحرمين الشريفين.
- أسندت بعض الوظائف الدينية إلى حجاج جاوروا، منها وظيفة الفتوى والقضاء وعقد الأنكحة والحسبة والإمامة والخطابة ووظيفة المؤذن.

- أما بالنسبة إلى الآثار العلمية والثقافية فقد أسهمت هذه الركاب في نشر العلم والثقافة في بلاد الحرمين الشريفين، خاصة أن كثيراً من الحجاج كانوا من العلماء والفقهاء.
- لم يقتصر دور الحجاج والمجاورين على تعليم العلم بل قام بعضهم ببناء دور العلم، خاصة المدارس.
- قام بعض الحجاج بتأليف الكتب ونظم الأشعار والقصائد في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم.
- أما بالنسبة إلى الآثار الاجتماعية فقد كان الحجاج والمجاورون يشكلون جزءاً من البناء الاجتماعي لمجتمع الحرمين الشريفين، ولم يكونوا بمعزل عن حياة المجتمع المكي أو المدني، وتتعدد الآثار الاجتماعية للحج، التي وردت في هذه الدراسة.
- أما الآثار الاقتصادية للحج فكانت آثاراً عظيمة لا تقل أهمية عن بقية الآثار المختلفة التي تم ذكرها سابقاً.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية:

- ابن الأثير، (١٩٩٦م)، (علي بن أبي الكرم، المتوفى عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.
- أحمد بابا، (أحمد بن عمر اقيت التنبكني ٩٦٣- ١٠٣٦هـ/ ١٥٥٦ - ١٦٢٧م)، (١٩٨٩م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، بطرابلس ليبيا، الطبعة الأولى.
- الادريسي، (أبو عبدالله محمد بن عبدالله، المتوفى عام ٥٥٧هـ/ ١٩٦٢م)، (١٩٨٩م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى، بيروت.
- ابن أبيك الدواداري، (أبو بكر عبدالله، المتوفى عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، (١٩٦٠م)، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٩، تحقيق هانس روبرت.
- ابن بطوطة، (أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، (١٩٨٧م)، رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبدالمنعم العريان، بيروت، الطبعة الأولى.
- البكري، (أبو عبدالله بن عبدالعزيز، ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، (١٩١١م). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ليدن، الطبعة الثانية.
- ابن تغري بردي، (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):
  - النجوم الزاهرة ج٦-١٢، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، دون تاريخ، ج١٣، تحقيق فهيم شلتوت، نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٠م، ج١٦ تحقيق د. جمال الدين الشيال، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م.

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (١٩٨٥-١٩٨٦م)، جـ١، ٢ تحقيق د. محمد محمد أمين، جـ٣ تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن جبير، (محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني والمصري، القاهرة، دون تاريخ.
- ابن حبيب، (الحسن بن عمر بن الحسن، ت: ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، (١٩٧٦م)، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب المصرية.
- ابن حجر العسقلاني، (شهاب الدين أحمد بن علي، ت: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، (١٩٦٦م)، الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد، ٥ أجزاء، القاهرة.
- السخاوي، (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، ت: ٩٠٢هـ/١٩٤٧م)، (١٩٧٩م):
  - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريف، نشر أسعد طرابزوني الحسيني، القاهرة.
  - التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، سنة ١٨٩٦م.
- السعدي، (عبدالرحمن بن عبدالله، ت: ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م)، (١٨٩٨م)، تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس.
- ابن سعيد المغربي، (أبو الحسن علي بن موسى، ت: ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م)، (١٩٥٨م)، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق د. خزان قرنيط خينيس، تطوان، المغرب.
- السيوطي، (الحافظ جلال عبدالرحمن، ت: ٩١٢هـ/١٥٠٦م)، (١٩٦٧-١٩٦٨م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جزآن، القاهرة، الطبعة الأولى.

- ابن شداد، (بهاء الدين المعروف بابن شدادت: ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، (١٣١٧م)، كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مصر.
- ابن الصيرفي (علي بن داود الجوهري، ت: ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، (١٩٧٣م)، – نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة.
- العبدري (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري، القرن ٧هـ/١٣م)، (١٩٦٨م)، رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط.
- العيني، (بدر الدين محمود العيني، ت: ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، (١٩٨٧م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (عصر سلاطين المماليك، ج١) تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب المصرية.
- الفاسي، (الامام أبو الطيب الفاسي محمد بن أحمد الحسني المكي، ت: ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، (١٩٥٨م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ١، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة، جـ ٢، ٣، ٤ تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، سنة ١٩٦٢، ١٩٦٥م.
- أبو الفدا، (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ن: ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، (١٨٤٠م):
  - تقويم البلدان، باريس.
  - المختصر في أخبار البشر، جـ ٣، ٤، بيروت، دون تاريخ.
- قطب الدين الحنفي، (ق: ١٠هـ/١٦م)، (١٣٠٣هـ)، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ألفه عام ٩٨٥هـ، طبعة مصر.
- القلقشندي، (أبو العباس أحمد بن علي، ت : ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، ٥، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.

- محمود كعت التنبكتي، (ت: ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م)، (١٩٣٠م)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس.
- المقريزي، (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، (١٩٨٧م):
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١، ٢، القاهرة، الطبعة الثانية.
  - الذهب المسبوك من ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق د.جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٥٥م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١، ٢، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٥٧، ١٩٧٠-١٩٧٢م، جـ ٣، ٤، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، سنة ١٩٧٠-١٩٧٣م.
- المقدسي، (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، ن: ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧م.
- ناصر خسرو، (ت: بعد ٤٤٤هـ/١٠٥٢م)، (١٩٨٣م)، سفر نامة المعروف برحلة ناصر خسرو، ترجمة وتقديم د. أحمد خالد البدلي، الرياض، الطبعة الأولى.
- النويري، (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ت:٧٧٢هـ /١٣٧١م)، (١٩٩٠م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٣، تحقيق د. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الكتب المصرية.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، (١٩٥٣م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١، ٣ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة.
- ابن الوردي، (زين الدين عمر بن الوردي، ت: ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)،

(١٩٧٠م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ٢، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت، الطبعة الأولى.
- ياقوت، (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي، ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٣٠م)، (١٩٧٩م)، معجم البلدان، ٥ مجلدات، بيروت.

ثانياً – المراجع العربية:

- السيد عبدالعزيز سالم، (١٩٩٣م)، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- عطية القوصي، (١٩٧٦م)، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة.
- محمد محمد أمين، (١٩٨٠م)، الأوقاف والحياة الاجتماعية في العصر المملوكي، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى.

ثالثاً – المراجع الأجنبية :

- Doris Behrens. (2007), Cairo of the mamlouks, IB. Tours, London, new york ISB No. - 184577 - 549 - 4.
- Rieley - smth. (2007), jonathan, the oxford I lustrated history of the crusades, oxford ubniersity press, ISB No. 19 - 2884283.